

تفسير ابن كثير

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلثموا السلاح في حال همهم وغمهم والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر { إذ يغشاكم النعاس أمنة منه } الآية وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم وكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس في القتال من الله وفي الصلاة من الشيطان وقال البخاري وقال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وأخذه ويسقط وأخذه وهكذا رواه في المغازي معلقا ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيبان عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجفته من النعاس لفظ الترمذي وقال : حسن صحيح ورواه النسائي أيضا عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن أبي قتيبة عن ابن أبي عدي كلاهما عن حميد عن أنس قال : قال أبو طلحة : كنت فيمن ألقى عليه النعاس الحديث وهكذا روي عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف وقال البيهقي : حدثنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيبان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك أن أبا طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق { يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية } أي إنما هم كذبة أهل شك وريب في الله هكذا رواه بهذه الزيادة وكأنها من كلام قتادة C وهو كما قال فإن الله D يقول : { ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم } يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله D سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال : { وطائفة قد أهتمهم أنفسهم } يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف { يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية } كما قال في الآية الأخرى { بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا } إلى آخر الآية وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الطنون الشنيعة ثم أخبر تعالى عنهم أنهم { يقولون } في

تلك الحال { هل لنا من الأمر من شيء } فقال تعالى : { قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك } ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله { يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا } أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله { يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا } لقول معتب رواه ابن أبي حاتم قال الله تعالى : { قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم } أي هذا قدر قدره الله وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وقوله تعالى : { وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم } أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال { والله عليم بذات الصدور } أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر ثم قال تعالى : { إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا } أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال تعالى { ولقد عفا الله عنهم } أي عما كان منهم من الفرار { إن الله غفور حلیم } أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان وتولييه يوم أحد وأن الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله { ولقد عفا الله عنهم } ومناسب ذكره ههنا قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال : لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن : أبلغه أني لم أفر يوم حنين قال عاصم : يقول يوم أحد : ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر قال : فانطلق فأخبر بذلك عثمان قال : فقال عثمان : أما قوله إني لم أفر يوم حنين فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال تعالى : { إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم } وأما قوله إني تخلفت يوم بدر فإنني كنت أمرض رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت وقد ضرب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم فقد شهد وأما قوله إني تركت سنة عمر فإنني لا أطيقها ولا هو فأتته فحدثه بذلك